النص المسرحي الموجه للطفل الجزائري
جذوره وموضوعاته

د. محمد بن صالح
جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر

ملخص:

إن الكتابة للطفل عملية صعبة لأنها تختلف عن الكتابة للكبار، فهي تتطلب جهدا غير يسير ومهارات متعددة لإنتاج أدب يلبي حاجة الطفل، ويفتح أمامه آفاقا رحبة تحقق له رغباته ومن ثمة تهيئ شخصيته ليكون رجل المستقبل، لهذا فإن كاتب النص المسرحي للأطفال عليه أن يعيش عالمهم، ويتقمص شخصيتهم، ويفهم نفسيتهم، ويدرك بموضوعية قدراتهم، ويتفهم ملكاتهم، ومن ثمة يبدأ في الكتابة فيختار اللفظ البسيط والفكرة الواضحة وفق التعامل الأسري، ووفق ميكانيزمات الحياة اليومية التي تشغل بالهم.

يحاول المقال أن يتتبع جذور وموضوعات النص المسرحي الموجه للطفل الجزائري في مرحلتين أساسيتين: مرحلة ما قبل الاستقلال ومرحلة ما بعد الاستقلال.

مدخل:

استرعى المسرح الموجه للطفل الكثير من الباحثين والدارسين، كما اهتمت الدول بالأطفال فأنشأت لهم الوسائل الخاصة بالتربية والتعليم والتثقيف والترفيه، ومن أهم هذه الوسائل المسرح.

ولقد عُرِف هذا الفن منذ آلاف السنين عند اليونان أولا ثم عند الرومان ثانيا، ومما لاشك فيه أن الطفل أخذ حقه من الرعاية والاهتمام ولو عن غير قصد، فقد أشركوا الأطفال في طقوسهم الدينية وفي احتفالاتهم بالرقص والغناء[1].

وتؤكد بعض الدراسات أن الصينيين القدماء واليابانيين قد أولوا الطفل بالرعاية والاهتمام فقد استخدموا في عروضهم الدمى والعرائس وإن كان الجمهور من الكبار.

ولقد بلغ الاهتمام بمسرح الطفل قمته عند الغربيين قبل الحرب العالمية الثانية، وكان الاتحاد السوفياتي من الدول السباقة إلى الاهتمام بمسرح الطفل عندما أنشأ أول مسرح دائم للطفل في موسكو في الذكرى الأولى لثورة أكتوبر وكان الهدف من إنشائه تمجيد الاشتراكية وتأصيلها في نفسية الطفل من جهة، وتصوير بشاعة الرأسمالية وحقارة الاحتكار من جهة أخرى[2].

وفي أمريكا ظهر أول مسرح للأطفال سنة 1903م في نيويورك، ثم أخذ في الانتشار في بقية الولايات، وأول عمل مسرحي كان (أليس في بلاد العجائب) الذي قدم سنة 1922م[3] .

وعرفت أوربا مسرح الطفل سنة 1784م، وبالذات في فرنسا من خلال العرض المسرحي الذي قدمته مدام (ستيفاني دي جيلنيس) للأطفال في قصر (دوق شارتر)، كما عرضت مسرحية (عاقبة الفضول) التي تصور عواقب الفضول ونتائجه والتى يرى فيها بعض الباحثين أنها البداية الحقيقية لمسرح الطفل [4].

ولقد تنافست الدول الأوربية فيما بينها في مجال الاهتمام بمسرح الطفل، فافتتحت ألمانيا أول مسرح للأطفال سنة 1946 بمدينة (ليزبك) تحت اسم (مسرح

العالم الفني)[5]، وفي إيطاليا أنشأت (جيسي جرانتو) سنة 1959م مسرحا للأطفال[6].

وما زال مسرح الطفل عند الغرب إلى يومنا هذا يلقى اهتماما من طرف المسئولين على الثقافة، ويتطور في مجال الكتابة والتمثيل والإخراج ويواكب التطور التكنولوجي، من ذلك مثلا أن المنصة الجامدة قد حلت محلها تقنية المنصة المتحركة بحيث أصبحت المناظر تتغير بسرعة، وأُدْخِلت المؤثرات المذهلة حتى أصبح مسرح الطفل ينافس مسرح الكبار في الوسائل الفنية والجمالية.

وأما مسرح الطفل عند العرب فهو جزء من المسرح عموما، فهو فن دخيل ليست له أصول في أدبنا العربي، وفد إلينا من الغرب بداية من سنة 1848م عن طريق الترجمة أو الاقتباس أو الاحتكاك المباشر بالغرب، ومن رواده الأوائل مارون النقاش في لبنان، وأبو خليل القباني في سوريا، ويعقوب صنوع في مصر.

ويبدأ التأريخ لفن مسرح الطفل بظهور المسرح المدرسي في العصر الحديث في كل من سوريا ومصر والجزائر... ففي مصر ظهر المسرح المدرسي على يد زكي طليمات سنة 1936م[7] الذي دعا إلى إنشاء مسرح في كل ثانوية يسهل تركيبه وطيه، ثم ظهر مسرح الطفل بصفة رسمية سنة 1964م عندما تخصصت بعض الكليات في مجال المسرح[8]، وبدأت أولى مسرحيات الأراجوز سنة 1959م مع مسرحية (الشاطر حسن).

وفي سوريا كانت البدايات الأولى للمسرح المدرسي على يد مجموعة من المربين أمثال رضا صافي الذي كتب بعض المشاهد التمثيلية في كتابه (صرخة الثأر) الذي صدر سنة 1980م، وسليمان العيسى الذي اهتم بالأطفال فكتب بلغتهم ومشاعرهم مجموعة من المسرحيات جمعها في كتابه الكبير (مسرحيات

غنائية للأطفال) الذي صدر سنة 1969م[9]. إلا أن الانطلاقة الحقيقية لمسرح الطفل كان بداية من سنة 1974م عندما بدأ مجموعة من الكتاب في كتابة مسرحيات للأطفال مثل: مسرحية (قتلوا الحمام) لـ: صالح هواري، ومسرحية (سيدة الثمار) لـ: جمانة نعمان، ومسرحية:(الملك والربيع) لـ: عيسى أيوب[10].

النص المسرحي الموجه للطفل:

إن النص المسرحي عموما يختلف عن غيره من النصوص الأدبية، فبالإضافة إلى قيمته الأدبية كنص موجه للقراءة، فهو يستكمل ذاته بالعرض وما يتبعه من تمثيل، وديكور، ومؤثرات صوتية، وإضاءة ...

ويبين المسرحي الفرنسي (أنتون أرتو) أهمية النص المسرحي بقوله:" شيء واحد لا يقهر، شيء واحد يبدو حقيقيا: النص النص... بوصفه حقيقة مميزة، توجد في حد ذاتها، وتكتفي بذاتها".[11]

ويقول محمد بسام ملص في محاضرته الموسومة بـ: أشكال أدب الطفل: "لا أبالغ إذا ما قلت أن الكتابة للأطفال أمر يتطلب مقومات لا يمكن أن تتوفر عند أي كاتب ولا أبالغ إذا اعتبرت أن كتابة النص المسرحي هي أصعب أنواع الكتابة في أشكال أدب الطفل فلابد للكاتب أن يمتلك الحس المسرحي الدرامي"[12].

والمسرحية قبل أن تعرض على خشبة المسرح إنما تكون فكرة في ذهن الكاتب، واللغة هي أساس البناء المسرحي، والكلمات أخيرا هي محور الفن المسرحي، وفي هذا يقول غنيمي هلال: "دعامته الأولى استنفاد طاقات اللغة في دقة الاختيار للعبارة وإحكام الصياغة من غير تكلف، أو حلية مصطنعة"[13].

والمسرح المقدم للأطفال يتميز عن مسرح الكبار بجملة من الخصائص أهمها:

– أنه يراعي عمر الطفل، بحيث تتناسب المسرحيات في شكلها و مضامينها مع نمو الأطفال عقليا ونفسيا واجتماعيا ولغويا، وتتلاءم مع حاجات ورغبات الأطفال في كل مرحلة عمرية من مراحل الطفولة.

– أن كاتب النص على علم واسع بعادات الطفل وسلوكاته من لعب، وإعجاب بالأبطال وتقليدهم، والميل إلى الضحك أو البكاء ... [14]

– أن المسرحية تستعين بعنصر الفكاهة دون تكلف لما للفكاهة من أثر في النمو النفسي للطفل، وهذا ما أكدته التجارب، يقول زكريا إبراهيم: "روح الفكاهة تقترن بالنمو النفسي فتكون في كثير من الأحيان بمثابة أمارة على سلامة العقل وصحته وقدرته على فهم حقيقة الأشياء"[15].

أهداف النص المسرحي الموجه للطفل:

إن مسرح الطفل يلعب دورا كبيرا في بعث طاقات الطفل المكبوتة، وتنمية شخصيته انفعاليا واجتماعيا وعقليا، ومن ثمة فهو يقدم للطفل ما يعجز محيطه الأسري أو حتى المدرسي عن تقديمه.

ورغم تنوع هذه الأهداف وكثرتها إلا أنه يمكننا أن نجملها في نقطتين أساسيين:

1– **أهداف تربوية:**

إن النص المسرحي الجيد يغرس في الطفل القيم الخلقية وينميها لأنه من أكثر الوسائط الثقافية تأثيرا، فقد يستعين الطفل لحل بعض مشاكله بالأفكار والحلول المستوحاة من المسرحيات التي شاهدها. كما يدعو مسرح الطفل الأطفال إلى الاقتداء ببعض الشخصيات التي صنعت التاريخ وساعدت على نهوض الأمم والشعوب، ومن ثمة ينمي فيهم حب الاستطلاع، وروح البحث والإبداع.[16]

2- أهداف جمالية وفنية:

يعمل النص المسرحي على سد احتياجات الطفل العاطفية من خلال ما يعرض على خشبة المسرح من موسيقى ورقص ورسم و كل ما هو جميل من أجل تنمية ذوقه الفني والجمالي، ومحاولة بعث جيل يعشق هذا الفن ويمارسه في مؤسسته التعليمية، وتدريبه على مشاهدة العروض المسرحية وتذوقها وتقييمها،وإقامة المسابقات المسرحية بين الفرق المسرحية قصد خلق المنافسة الشريفة بين التلاميذ وتحفيزهم للإبداع والتفوق، واكتشاف القدرات والمواهب بين التلاميذ ورعايتها وتنميتها فنيا. [17]

المسرح في الجزائر:

من أبرز الشخصيات الجزائرية التي أدركت أهمية المسرح ودوره الفعال في إيقاظ الأمة واتخذته وسيلة لتثقيف الأوساط الشعبية: الأمير خالد الذي التقى سنة 1910م في باريس بالممثل المصري جورج أبيض وطلب منه بعض المسرحيات لتمثيلها في الجزائر، فلبى هذا الأخير الطلب وبعث له مجموعة من المسرحيات سنة 1911م بعد عودته إلى القاهرة، ومن بينها على سبيل المثال: مسرحية (المروءة والوفاء) لخليل اليازجي، ومسرحية (شهيد بيروت) لحافظ إبراهيم[18] .

وفي سنة 1921م قامت فرقة جورج أبيض بزيارة إلى الجزائر في إطار جولتها إلى شمال إفريقيا، وقدمت مسرحيتي: (صلاح الدين الأيوبي) و(ثارات العرب) لجورج حداد باللغة العربية الفصحى، وفشلت الفرقة في تحقيق النجاح الذي حققته في البلدان المجاورة لسببين: أولهما أن الطبقة المثقفة كانت مشغولة بالمستعمر الفرنسي وكيفية محاربته، وثانيهما أن الجمهور الجزائري لم يجد متعة في العروض المسرحية لأنها قدمت باللغة العربية الفصحى[19].

وفي هذا الإطار يرى مصطفى كاتب أن المسرح في المشرق العربي ارتبط بالترجمة و التعريب وأما في الجزائر فقد ارتبط بـ: الاسكتشات الاجتماعية والغنائية والهزلية المسجلة[20].

جذور النص المسرحي الموجه للطفل الجزائري:

أ- مرحلة ما قبل الاستقلال:

ارتبط ظهور مسرح الطفل في الجزائر بظهور المدارس العربية الحرة، إذ كان مدير المدرسة أو أحد المعلمين يكتب مسرحية يمثلها التلاميذ في مناسبة من المناسبات كالمولد النبوي الشريف، أو في نهاية السنة الدراسية، ومما يؤسف له أن هذه المسرحيات بعد تمثيلها تنسى وتهمل، ولا يحتفظ بها كتابيا[21].

وبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين وانتشار المدارس الحرة عرف الفن المسرحي نشاطا كبيرا، وما يميز مسرحيات هذه الفترة أنها صالحة للأطفال رغم كونها موجهة للكبار وتلاميذ المدارس.

وأول مسرحية شعرية باللغة العربية الفصحى هي مسرحية (مضار الخمر والحشيش) لـ: محمد العابد الجيلالي التي كتبها قبل الحرب العالمية الثانية، كما كتب محمد العيد آل خليفة في هذه الفترة مسرحيته الشعرية (بلال بن رباح) خصيصا لأطفال المدارس، نشرتها المطبعة العربية بالجزائر سنة 1938م، إلا أنها لم تمثل إلا سنة 1958م بمدينة باتنة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

ونشطت حركة المسرح المدرسي بعد الحرب العالمية الثانية فظهرت مسرحيات:(الناشئة المهاجرة)، و(الخنساء)، و(حليمة مرضعة النبي) صلى الله عليه وسلم لـ: محمد الصالح رمضان، والتي مثلت بمدرسة دار الحديث بتلمسان سنة 1948، ومسرحية (المولد النبوي) لـ:عبد الرحمن الجيلالي التي مثلت سنة 1951م، ومسرحية (الحذاء الملعون) لـ: جلول أحمد البدري التي نشرت لأول مرة سنة 1953 بمجلة.

ب- مرحلة ما بعد الاستقلال:

تميزت بداية هذه المرحلة بصدور قرار اللامركزية في مجال المسرح وذلك سنة 1972م، ونص هذا القرار على إنشاء مسارح في كل من عنابة وقسنطينة ووهران، وقامت هذه المسارح الجهوية فيما بعد بتقديم عروض للصغار[22].

وخلال هذه المرحلة، كتب أحمد بودشيشة مجموعة من المسرحيات منها مسرحية (المصيدة)، وكتب عبد الوهاب حقي سلسلة المسرح الهادف للأطفال ومن مسرحياته (بلاغ في فائدة العائلات)، كما كتب لخضر بدور مسرحية (الشيخ وأبناؤه) والتي صدرت سنة 1997م[23].

ونظم مسرح قسنطينة أربع مهرجانات: الأول سنة 1982م، والثاني سنة 1983م، والثالث سنة 1986م، والرابع سنة 1989م[24]، وقدم تجربة مسرح الطفل ممثلة في بعض العروض بالطريقة التقليدية القديمة المعتادة.

وابتداء من سنة 1996م ولمدة أربع سنوات متتابعة ازداد نشاط مسرح الطفل نشاطا بفضل المسابقات السنوية المفتوحة للكتاب والمهتمين بأدب الطفل التي أقامتها مديرية الآداب والفنون بوزارة الاتصال والثقافة، إذ قُدِّم أكثر من مائة عمل مسرحي، ومن الكتاب الفائزين الذين حركوا عجلة المسرح: عبد القادر شرابة، ومحمد قادري، وسهام بوخروف ...

وما يلاحظ على هذه الأعمال أنها استلهمت بعض الحكايات من كتاب كليلة ودمنة، وأخرى من كتاب (Les Fables) للكاتب الفرنسي لافونين (la fontaine)، وأنها استعملت اللغة الفصحى كوسيلة للتعبير والحوار وابتعدت عن العامية، واستطاعت هذه الأعمال المرتبطة بمسرح الطفل أن تفتك بعض الجوائز على الصعيدين الوطني والعربي، إذ نال على سبيل المثال المسرح الجهوي لمدينة باتنة الجائزة الأولى في المهرجان العربي لمسرح الطفولة بتونس في نوفمبر 1999م بمسرحية (رحلة الأمير الصغير) لمخرجها علي جبارة.

موضوعات النص المسرحي الموجه للطفل الجزائري:

استمدت المسرحيات الموجهة للأطفال في فترة ما قبل الاستقلال موضوعاتها من الواقع، ومن التاريخ، ومن التراث الشعبي الزاخر بالحكايات والأساطير والأخبار والسير، وسجلت الأحداث وعالجت هموم المجتمع، ومجدت أبطال المقاومة، وهدفها في هذا كله النهوض بالأطفال رجال المستقبل لمعرفة مدركات الحياة وكيفية مواجهتها، ومن أبرز الموضوعات التي عالجتها:

1- الموضوعات الوطنية:

من المسرحيات التي عالجت موضوعا وطنيا مسرحية (الشيخ وأبناؤه) لـ: لخضر بدور من خلال الحوار الذي دار بين شيخ كبير ومجموعة من الشباب منهم: المعلم والطبيب والجندي والفلاح... والشيخ ما هو إلا التاريخ في ماضيه وحاضره ومستقبله، والشباب ما هم إلا أمل المستقبل، فها هم يشيدون بوطنهم ويتعاهدون على خدمته.

2- الموضوعات الدينية:

التاريخ الإسلامي حافل بالمفاخر والبطولات و الأمجاد، فلا غرابة أن ينهل الأدباء الجزائريون من هذا المنبع، منبع الآباء والأجداد، وهذا ما دعا إليه بعض النقاد صراحة: "يجب أن تكون مادة الروايات المسرحية وموضوعاتها مقتبسة من التاريخ العربي الحافل بالوقائع والحوادث"[25].

ومن بين المسرحيات التي عالجت موضوعات دينية: مسرحية (الناشئة المهاجرة) لـ: محمد الصالح رمضان التي تهدف إلى تربية الصغار و تعليمهم كيف تكون التضحية من خلال حوادث هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة[26]، ومسرحية (المولد النبوي) لـ: عبد الرحمن الجيلاني التي تدعو الشباب إلى التعبير عن أفكارهم والثورة على العادات والتقاليد البالية[27].

3- الموضوعات الاجتماعية:

عالجت المسرحيات الموجهة للأطفال بعض الموضوعات الاجتماعية التي لها صلة بالأطفال، وهي على العموم تدعو إلى الفضيلة و تحذر من مضار الجهل والقمار والحشيش[28]، ومن بين هذه المسرحيات مسرحية (مضار الخمر والحشيش) لـ: محمد العابد الجيلالي، ومسرحية (شباب اليوم) لـ:محيي الدين باش تارزي، ومسرحية (امرأة الأب) لـ: أحمد بن ذياب .

4- الموضوعات المدرسية والسلوكية:

الموضوعات السلوكية تتمثل في القيم والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الأطفال داخل المدرسة وخارجها، وأما الموضوعات المدرسية فهي متنوعة ومن

بينها: وجوب احترام المعلم، والمحافظة على الأدوات المدرسية، واختيار الأصدقاء، وكيفية الاستفادة من العطل المدرسية...

ومن المسرحيات التي عالجت هذه القضايا مسرحية (محفظة نجيب) لـ: أحمد بودشيشة التي تغرس في نفوس الأطفال حب النظام، وترغبهم في المحافظة على الأدوات المدرسية كالمحفظة والأقلام والمقلمة والكراس وتنفرهم من الفوضى.

5- الموضوعات الفكاهية:

إن الموضوعات الفكاهية كثيرة، والهدف منها متنوع، فالفكاهة قد تكون غاية في ذاتها وذلك ببعث الضحك في المتفرج والترفيه عنه، وقد تكون الفكاهة وسيلة لغايات أخرى اجتماعية أو سياسية ... سطرها الكاتب المسرحي ويهدف من خلالها الوصول إلى ذهن القارئ أو المتفرج والتأثير فيه عن طريق الضحك.

وإضحاك المتفرج عملية صعبة تتطلب من الكاتب المسرحي الكثير من الخبرة في مجال الفكاهة. ومن المسرحيات التي اتخذت الفكاهة وسيلة لمعالجة بعض القضايا الاجتماعية والسلوكية مسرحية (الحذاء الملعون) لـ: جلول أحمد البدوي والمقتبسة من كتب النوادر العربية.

وفي الأخير إن الكتابة للطفل لابد منها رغم صعوبتها، فعلى الكتاب المزيد من الاهتمام بهذه الفئة من المجتمع والسعي إلى إنتاج ما يلبي حاجتها ويحقق رغباتها، وإعدادها للمستقبل بالتوجيه الحسن.

تهميش:

(1) نبيل عبد الهادي وآخرون، الفن والموسيقى والدراما في تربية الطفل، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2001م، ص101.

(2) جمال أبورية، ثقافة الطفل العربي، سلسلة كتابك، دار المعارف، عدد21، القاهرة، ص46.

(3) هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال فلسفته، فنونه، وسائطه، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1968م، ص237 .

(4) فوزي عيسى، أدب الأطفال الشعر، مسرح الطفل، القصة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية، 2007م، ص91.

(5) محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 2004م، ص230.

(6) فوزي عيسى، أدب الأطفال الشعر، مسرح الطفل، القصة، ص92.

(7) محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، ص232.

(8) نبيل عبد الهادي وآخرون، الفن والموسيقى والدراما في تربية الطفل، ص104.

(9) عبد الله أبو هيف، المسرح العربي المعاصر، قضايا ورؤى وتجارب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م، ص118.

(10) الرجع نفسه، ص190.

(11) نقلا عن: عز الدين جلاوجي، النص المسرحي في الأدب الجزائري دراسة نقدية، دار هومة للطباعة، ط1، 2000م، ص10.

(12) مجلة وزارة الثقافة، ريبرتوار المسرح الجزائري، المكتبة الوطنية الجزائرية، العدد6-7، 2005م، ص48.

(13) غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1973م، ص660.

(14) فوزي عيسى، أدب الطفل: الشعر، مسرح الطفل، القصة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، الإسكندرية، 2007م، ص101.

(15) زكريا إبراهيم، سيكولوجية الفكاهة والضحك، دار مصر للطباعة، ص150.

(16) محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 2004م، ص242.

(17) كمال الدين حسين، المسرح التعليمي المصطلح والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 2005م، ص25.

(18) عبد الرحمن ماضوي، يوغرطة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1984م، ص3.

(19) علي الراعي، المسرح في الوطن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978م، ص459.

(20) المرجع نفسه، ص460.

(21) العيد جلولي، النص الأدبي للأطفال في الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص186.

(23) العيد جلولي، النص الأدبي للأطفال في الجزائر، ص189.

(24) المرجع نفسه، ص190.

(25) جريدة المساء، عدد 51 ، جويلية 1989م، ص10.

(26) محمد مصايف، النقد الأدبي في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984م، ص193.

(27) عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص194م.

(28) عز الدين جلاوجي، النص المسرحي في الأدب الجزائري، ص61.

(29)العيد جلولي، النص الأدبي للأطفال في الجزائر، ص198.